

فريدريك آماين

ترجمة: ماريو كرم شماس

اكتشاف عبقرى: رودلف شتاينر في عامه المائة والخمسين





© 2022 Frederick Amrine

All rights reserved.

No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopy, recording, or any information storage and retrieval system without permission in writing from the publisher.

جميع الحقوق محفوظة

قال فيلي برانندت الفائز بجائزة نوبل للسلام، ولذلك هو يعلم ما يقول، أن الفضل يعود لرودف شتاينر لتقديمه أكبر مساهمة في السلام العالمي في القرن العشرين. في مذكراته لعام 2005، وصفه رئيس تحرير صحيفة الوطن فيكتور نافاسكي بأنه "متقدم على زمنه بعدة سنين ضوئية". وقد وجد آخرون مثل جوزيف بويس في رؤى شتاينر العميقة فيما يتعلق بالطبيعة البشرية أن تجديد الحضارة بشكل شامل هو أمر ممكن. قال أوين بارفيلد أن شتاينر قد يكون هو المفكر الرئيسي في العصر الحديث، واستغنى عن تحفظه البريطاني الاعتيادي عندما أكد أن: "مكانة شتاينر لا تُقاس بالمقارنة مع معاصريه بل مع التاريخ العام للعقل الغربي. إنها فخمة بشكل يفوق التوقعات". أولئك المحظوظون باكتشاف رودلف شتاينر يعلمون أن تقييمهم الذي يبدو زائدا عن اللزوم سيثير الشك عند الآخرين. إن كان رودلف شتاينر حقا عبقريا لهذه الدرجة، فلماذا بقي مجهولاً بعد قرن من وفاته تقريباً؟

لقد حدث هذا من قبل. لم يكن أرسطو معروفا في الغرب لألف سنة. أضافت الكنيسة الكاثوليكية توماس الأكويني إلى فهرس الكتابات المحظورة لمدة نصف قرن بعد وفاته، وبقي مجهولا للعموم. مع حلول القرن التاسع عشر، اكتشف مندلسون عظمة الموسيقى باخ وأكد عليها. باع فان غوخ لوحة واحدة خلال حياته، وجميعنا نعلم اليوم من هو فان غوخ. كلما تذكّرنا الماضي، نهز رؤوسنا ونتساءل عن هذا الإهمال وأسبابه. يستمر هذا الإهمال بلا توقّف، وبنفس الطريقة، سوف تهز أجيال المستقبل رؤوسها وتتساءل عنا.

التحديات

توجد العديد من الأسباب المؤدية إلى الإهمال، ولا أحد منها مقبول. إنَّه مكانة في درجات المجتمع ليست تقليديَّة أو عاديَّة، فهو معلم وفنان والفيلسوف ومثقف عام ولاهوتي ومؤرخ وناقد ثقافي ومعلِّم روحي. كان شتاينر يتمتَّع بكلِّ هذه الصِّفات، ومع ذلك، فلا تستطيع أي منها التَّعبير عن أفق تفكيره وفهم نطاق عمله الحقيقي. من ناحية أخرى، يبدو شتاينر لأول وهلة شخصية سهلة التَّجاهل، أو سهلة الوصف باستخدام مصطلح ازدرايِّ مثل القائد الروحي أو الغامض أو المتصوِّف، إلَّا أنَّ شتاينر لم يكن قط قائدا روحيا، فقد رفض مفهوم السلطة رفضا باتا، وحدد الأنثروبوسوفيا (الحكمة الإنسانية، أو علم طبائع البشر) منذ البداية كفلسفة للحرية. قد يبدي بعض الأنثروبوسوفيين بدافع الاحترام والحماس، أو توقيرا لشخص شتاينر، لكن هذا يتعارض تمامًا مع رغباته وأسلوبه الخاص. هناك بالكاد تلميح لشخصيته في أي من كتاباته أو محاضراته، وحتى سيرته الذاتية غير المكتملة، والتي تناقش في الغالب أفكار الآخرين أو الأفكار التي راودته في وقت مبكر من حياته، فهي مكتوبة بأسلوب معزول عن شخصيته. لقد أكد شتاينر حقيقة وجود عالم روحي يتجاوز الوعي الطبيعي، ولكن إن كان هذا يجعل منه منجمًا أو صوفيًا، فإن أفلاطون وكيبلا وإمرسون وبلانك ونيوتن لم يختلفوا في ذلك أيضا.

ترسخت الأنثروبوسوفيا لكونها الفلسفة المثالية عند مفكرين مثل شيلر وهيغل ونيتشه، وخاصة غوته. ليست هذه أسماء غامضة، لكنها ليست معروفة جيدا في البلدان الناطقة بالإنجليزية، وروح المثالية الألمانية تتناقض مع الفكر التجريبي المتشكك الأنجلو-أمريكي. مع حلول نهاية القرن التاسع عشر، وفي ذروة المادية، انطلق شتاينر في محاولاته الأولية لتأسيس نفسه، أولاً في إطار الفلسفة الأكاديمية، ثم في حركة تعليم العمال. ولكن فشلت هذه المحاولات بسبب نفس النوع من التشكيك، والذي كان قد غزا في ذلك الوقت البلدان الناطقة بالألمانية أيضا. الأفكار التي أصبحت شائعة اليوم، مثل حقيقية العقل الباطني أو اللاواعي، أو الدور الفعال للمُدرك في بناء التجربة، كانت تعتبر بدعة في شباب شتاينر. حتى مجموعة الفنانين الطليعيين الذين انضم إليهم شتاينر بعد ذلك كانوا منغمسين في شخصياتهم الذاتية وبحركة الطبعية، فما كانوا قادرين على اتباع محاولات

شتاينر لإنتاج نوع من الفن الروحي، والذي ظهر لاحقا في الحركات التعبيرية، مثل حركة الفارس الأزرق التي أسست بعد عقدين. كانت جمعية الثيوصوفيين المجموعة الوحيدة التي تقبلت أفكار شتاينر، ولذلك، قبل دعواتهم لإلقاء محاضرات لهم، وفي النهاية، وافق على العمل كأمين لفرع ألماني جديد من الجمعية الثيوصوفية. في عام 1903، بدأ شتاينر يتحدث ويكتب عن بحوثه الروحية، لكن هذه المرحلة الثيوصوفية لم تستمر لسنوات طويلة؛ فبحلول عام 1907، ظهرت انقسامات عميقة بين شتاينر وقيادة الجمعية مما دفعه إلى الاستقالة سنة 1912.

لسوء حظ القراء الغربيين، نتجت عن هذه الفترة من حياة شتاينر الكثير من المصطلحات الأنثروبوسوفية (قبل اعتماد شتاينر هذا الاسم) المليئة بالعبارات السنسكريتية من الفلسفة الثيوصوفية، مثل أوروبا وبلاريا وديفاتشان. يحمل اثنان من الكتب الأساسية الأربعة لشتاينر (كما سميت



لاحقاً) عناوين ثيوصوفية، مثل كتاب "الثيوصوفية" (ولو أن أغلبية مواضيع الكتاب تتعلق بعلم النفس)، وكتاب *Die Geheimwissenschaft im Umriß* الذي هو نظير مختصر لكتاب هيلينا بلافاتسكي بعنوان "العقيدة السرية"، والذي تم نشره باللغة الإنجليزية تحت عنوان مترجم بشكل خاطئ، وهو "العلوم السرية". في آخر أعماله، قام شتاينر بتطوير مصطلحات جديدة. على سبيل المثال، استبدل شتاينر مصطلح *ديفاتشان* بمصطلحات أنطولوجية مثل الوجود والوحي والعمل الحي والعمل المنجز. هذه الصعوبات اللغوية هي بالتأكيد إحدى أسباب إهمال العالم لشتاينر، لكنها ليست أسباباً جيدة.

الأسرار تصبح عامة

تتمثل الصعوبة الأخرى في كون الأنثروبوسوفيا فلسفة مقتصرة على فئة معينة من الخبراء في هذا المجال، فلديها مفرداتها الخاصة التي تتطلب الإتقان. ولكن هذه الحالة تنطبق على كل شيء يستحق التعلم. إذا وضعنا المصطلحات الثيوصوفية جانبا، فسنرى أن لغة الأنثروبوسوفيا هي في الواقع واضحة جدا وبديهية، وعموماً، يكتب شتاينر ويتكلم مع الجمهور بطريقة واضحة. العائق الحقيقي هو أفكار شتاينر، التي غالباً ما تكون جديدة جدا وغير مألوفة، مما يثير استغراب الأشخاص. إن تفكير شتاينر العميق هو صعب الفهم حقا. كان شتاينر صاحب رؤية بكل ما يحمله هذا المصطلح من معاني فقد اكتسب كمية عالية مما تسمى تقليديا بقدرة الاستبصار. ذكر شتاينر أشياء لم يختبرها معظمنا واعتبرها حقائق (أو نفتقر إلى الشجاعة لإبلاغ العالم بأننا أحسننا بها فعلا، أو أحسننا بها ولكن لم نتمكن من فهمها)، ويؤكد لنا أننا جميعاً لدينا القدرة على تجربة هذه الأشياء بأنفسنا.

تقرّر إحدى تعاليم شتاينر الرئيسية أنّ الحضارة البشرية، إلى حد الماضي القريب، تأثرت جدا بأفراد معينين - العباقرة والمبتدئين- الذين ألهموا من خلال مشاركتهم في معرفة سرّية محتجزة، وتسمى بعديد من الأسماء. عموماً، يتبع شتاينر الإغريق في تسمية هذه المعرفة المخفية منذ زمن طويل

بالأسرار. في الصفحات الافتتاحية لكتاب شتاينر الأساسي الأول "كيفية الوصول إلى معرفة العوالم العليا"، يصف شتاينر ثورة جذرية حدثت في نهاية القرن التاسع عشر - لقد حان الوقت لتعليم الأسرار علانية وجعلها معرفة عامة في سبيل تطوير الحضارة الإنسانية. ما كان في الماضي شيئاً يتم الحصول عليه من الخارج عن طريق الوحي في حالة خاملة وشبه واعية، يجب أن يتم



البحث عنه بشكل نشط ووعي من الداخل. في لغة الحركة الرومنطيقية (التي تنذر بالحدث)، نقول أنه على المرأة أن تصبح الآن مصباحاً. هذا ما كان يقصده شتاينر عندما استبدل كلمة الثيوصوفية [الحكمة الإلهية] بالأنثروبوسوفيا [الحكمة البشرية]. وحتما كان هذا هو السبب لإطلاق أوين بارفيلد تعبير "الرومانطيقية تنضج" على مجموعة من مقالات أنثروبوسوفية كتبها شتاينر. اتبع الفنان الطليع والأنثروبوسوفي جوزيف بويس فكر شتاينر عندما تبنى تعبير "اجعل الأسرار منتجة!" كواحد من شعاراته العديدة.

أكثر من غزير الإنتاج

تمثل الكمية الهائلة لأعمال شتاينر صعوبة أخرى. إذا كان الأشخاص الذين يكتبون اثني عشر كتابًا يُدعون بأصحاب الإنتاج الغريزيّ، فإن شتاينر كان شيئًا أضخم من هذه العبارة. خلال الفترة التي كنت أقرأ فيها أعمال شتاينر بكثافة على مدى أشهر عديدة، قام ابني بالتلميح إلى الكتاب الورقي الأخضر ذي المائتي صفحة الذي كثيرا ما كان يراه في يدي، والذي كُتِبَتْ على غلافه كلمة *Gesamtwerk*، وقال لي بتنهد: "أليس هذا الكتاب كبيرا يا أبي؟ كم من الوقت ستستغرق بقراءته؟" فضحكتُ ووضحتُ له أن هذا مجرد فهرس أعمال شتاينر الكاملة باللغة الألمانية، والذي هو نفسه لا يزال غير مكتمل، إذ يذكر فقط حوالي أربع مائة عمل. وأريت ابني أنني كنت أضع علامة بجانب عنوان كل كتاب أنتهي من قراءته. يبدأ الفهرس بذكر خمسة وأربعين مجلدًا من الكتب والرسائل والمقالات المنشورة، تليها تسعة وثلاثون محاضرة عامة، ثم مائتان وسبعون من المحاضرات الخاصة التي ألقاها شتاينر لأعضاء الجمعيات الثيوصوفية والأنثروبوسوفية، والتي تم تسجيلها بالكتابة المختصرة. ينتهي الفهرس بذكر عشرات المجلدات من ملاحظاته ومخططاته ولوحاته، إلخ... لا تزال الكثير من أعماله غير مترجمة، وحتى يومنا هذا، لا تزال العديد من المخطوطات في الأرشيف غير محررة وغير منشورة. حتى أكثر الطلاب تحمسا لتعلم الأنثروبوسوفيا، والذي يستطيع أن يقرأ شتاينر باللغة الأصلية، يجب أن يتقبل الواقع، وهو أنّه سيموت قبل أن يستطيع قراءة كل أعماله.

تتراكم المشاكل بسبب عدم وجود كتاب لشتاينر يعتبر الكتاب المحوري، والذي يُجسد بنفسه فكره، على سبيل المثال كما يعتبر الكتاب "تفسير الأحلام" الكتاب الرئيسي لفرويد، "ونقد العقل المجرد" الكتاب الرئيسي لكانط. تواصل شتاينر مع العديد من الفئات المختلفة من الناس مستعملا العديد من التعابير. رؤاه العميقة متوقّرة في المحاضرات الخاصة، والموجودة منذ وقت طويل لجميع الذين يريدون أن يطلعوا عليها، ولكنها تفترض مسبقا سيطرة المستمع أو القارئ على مواضيع الكتب التمهيدية، وهذه بنفسها مهمة شاقة. يتأثر العديد من الناس كثيرا بكيفية تطبيق رؤى شتاينر في مجالات مثل التعليم أو الزراعة، ولكن حتى هذه الكتابات تفترض معرفة الكتب

الأساسية، والتي يختلف كل منها كثيرًا عن الآخر، وواحد منها يقدم نظرة كونية واسعة وصعبة الفهم. إذا أراد المرء أن يفهم شتاينر فهما كاملا، فسيحتاج إلى أن يقرأ أعماله على نطاق واسع. ولذلك عندما يُسأل الأنثروبوسوفيون عن كيفية البدء بدراسة شتاينر، فإنهم يتعثرون في أجوبتهم أحيانا. هذه صعوبة حقيقية، ولكنها ليست عذرا للإهمال.

علم روجي

قد تكون أكبر عَقَبَة لتقبّل شتاينر هو احتلاله الميدان الوسطي بين العلم والدين. كان شتاينر نفسه عالِمًا مدرَّبًا، وكان ضليعًا في تاريخ العلم وفلسفته. لكن تجاربه الداخلية الشخصية أكدت له حقيقة العالم الروجي، ووجد هناك حقا خصبا بظواهر يمكن تشرحها وفهمها من قبل باحث يستخدم أساليب بحث دقيقة. أكد شتاينر أن الوقت قد حان لكي تبدأ الإنسانية بتجاوز الإيمان المجرد، وتستبدله أولاً بمعرفة الحقائق الروحية، ثم بتجربتها المباشرة. يمثل تمهيد هذا الانتقال التاريخي جزءًا مهمًا مما كان يعنيه شتاينر عندما وصف الأنثروبوسوفيا بأنها علم روجي. سيصاب طرفا هذا الانقسام حتمًا بخيبة أمل، ولكن أولئك الذين يشعرون بألم هذا الجرح العميق في إنسانيتنا سوف ينجذبون نحو الأنثروبوسوفيا.

ليس للأنثروبوسوفيا علاقة بالدين، ولكن لها علاقة وثيقة بالروحانية. بالنسبة للمتحمسين، يعتبر هذا التمييز إما ضئيلا للغاية أو ليس له صلة بالموضوع. كتب شتاينر كثيرا عن مواضيع ذات علاقة بعلم اللاهوت، وخاصة اللاهوت المسيحي، لكن آراءه مسكونية وشاملة. ما أطلق عليه شتاينر اسم المسيح هو في الحقيقة قوّة روحية عالية تتخطى أية عقيدة أو مؤسسة دينية محددة، وتجمعهم جميعًا بطرق دقيقة ومعقدة. تتوافق الأنثروبوسوفيا مع العديد من التقاليد الدينية المختلفة، لكنها لا تقوم على أي مزيج منها ولا يمكن اختزالها. نشأ شتاينر في عائلة من المفكرين الأحرار، وكانت دوافعه للقيام بأبحاثه الروحية داخلية بالكامل. أراد شتاينر أن ينتج روحانية منعزلة عن أي مؤسسة دينية تقليدية.



كما أعرب أيضا عن استنكاره للأناثية الكامنة عند الإنجيليين بسبب تركيزهم على خلاصهم الشخصي.

لا يتعارض أي جزء من الأنتروبوسوفيا مع روح العلم الحديث الذي يكرمه شتاينر، ولكنه محقّ في انتقاداته للتطورات التاريخية التي قيدت اعتباريا الطرق التي يُفهم بها العلم ويمارس. يذكرنا شتاينر بأنه على العلم أن يتميز ليس بمجموعة من عناصر التحقيق المحددة سلفا، وإنما بالدقة والموضوعية والتحقق. تلوثت ينابيع العلوم الحديثة من قبل الرغبة في السيطرة على الطبيعة، والاختزالية غير المبررة، وأيضا بسبب الاعتقاد الخاطئ الذي يساوي الشكوكية مع الصرامة. برهن فكر فرانسيس بيكون الانتصاري نفسه. في نظره، يجب على العالم أن "لا يحذف أي وسيلة لإزعاج الإلهة ناتورا (Natura)"، وأن "يلاحقها أينما ذهبت". إنه يتخيل العالم "الذي يقود الطبيعة إليك مع جميع أبنائها لإلزامها لخدمتك". في جزء *الخطّة* بكتابه "التأسيس العظيم للعلوم"، يتباهى بيكون عندما يقول: "أنا لا أقترح فقط زيارة هذه المناطق في ذهني كما يفعل المنجم، بل أن أدخلها

مثل جنرال محتل". بعد أن عاملنا الطبيعة كعبدة وغنيمة حرب، هل من العجب أننا نتعرض لأزمات بيئية؟ تنبأ شتاينر بهذه الأزمات، وقدّم لنا حلولاً تصل إلى جذر المشكلة الحقيقي.

بعد ديكارت، حدّدت العلوم الحديثة أسلوبها بشكل تعسفي بإزالة جميع المفاهيم السببية ما عدا الأسباب الميكانيكية، ووصفت بالغموض كل الظواهر غير القابلة للقياس. ولذلك اتهم الديكارتيون نيوتن بإدخال العناصر الغامضة إلى العلم، لأن فهمه للجاذبية والقوة بدى وكأنه لا يتضمن أية آليات سببية، لكن أعظم العلماء لم يكونوا شكوكيين. كرس نيوتن نفس الكمية من وقته للفلسفة الهرمسية ولللاهوتكما كرس للرياضيات والفيزياء. وكيلبر (الذي كان وفقاً لكانط المفكر الأكثر "صرامة" في التاريخ) ادعى أنه اكتشف من خلال جهوده المكثفة الحكمة القديمة التي تمت حراستها، والتي كشفت جزئياً من قبل فيثاغورس والأسرار المصرية.

أنشأ شتاينر طريقة علمية للبحث في تلك الصفات المحددة، كما أن كتبه الضخمة ومقالاته ومحاضراته تُدوّن نتائج تجاربه تلك. أدرك شتاينر، مثل غوته قبله، أن المجرب مرتبط بشكل لا ينفصم عن بناء التجربة، وأنكّل التجارب هي بالفعل محمّلة بالنظرية. بالنسبة لغوته وشتاينر، يعتبر الإنسان الذي قام بتنمية قدراته العقلية أكثر الأدوات العلمية دقة. ومن هنا ابتكر غوته منهجاً علمياً بديلاً يستخدم خيالاً منضبطاً، وهو علم دقيق للصفات. ليس التخلص من سحر الطبيعة لغاية السيطرة عليها هو أسمى أهداف العلم، وإنما توسيع قدرات الفرد الشخصية من أجل الدخول تدريجياً في حكمة الطبيعة. مثل غوته، شعر شتاينر بأنّ الهدف النهائي للعلوم يجب أن يكون تحوّل العالم. كما قال فرويد وهوسرل وغيرهم من معاصري شتاينر، لا يوجد سبب مبدئي يمنع تمديد الصرامة العلمية إلى حقائق حياتنا الداخلية. إن الهدف الأسمى للعلم هو النظرية أو (theory) بالمعنى الجذري: تأتي كلمة (theoria) من نفس الجذر مثل (theater) أو المسرح، وتصف عرضاً تأملياً للحقائق الروحية. ونرى هذا الشيء أيضاً في جذر كلمة النظرية في اللغة العربية، وهي بمعنى أن ينظر المرء بتأمل إلى هذه الحقائق. وبالتالي فإن التحول الذاتي من خلال التأمل العميق في هذه الظواهر ليس نقيض العلم، وإنما إنه هدفه النهائي وجوهره.



توسيع الوعي

يعلّمنا أفلاطون في أسطورة "الكهف" بأن الفكر السطحيّ الذي يرتكز على الإحساس (doxa) ليس إلّا نتاج تفكير حيويّ. اتّبع شتاينر المثاليين الألمانين والرومنطقيّين في وصف هذا التفكير البديهي بالخيال. لكنه ذهب أبعد بكثير من الرومنطقيّين من خلال استكشافه الكامل للمجال الروحي للإدراك، والذي يعتبر المجال الرئيسي للخيال، وأيضاً من خلال تطوير وسائل أكثر فعالية من الإدراك، والتي وصفها بالإلهام والحدس. تعتبر إحدى الطرق الصّحيحة للبدء في التفكير فيما اكتشفه شتاينر هو توسيع مثال أفلاطون: الإلهام هو هيئة عليا إدراكية، والذي تكون فيه مشاعرنا اليومية هي الظل، ونرى ظل الحدس في هيئة إرادتنا. إن انتباهنا لمشاعرنا اليومية يشبه الحلم، والوعي ينام بعمق في إرادتنا. ولكن يمكن إيقاظ الوعي حتى في هذه المستويات العليا.

مثل فرويد ويونغ، يقرّ شتاينر بأنّ اللاوعي يحب عليه أن يصبح أكثر وعياً، وأن هناك طرقاً صارمة لتحقيق مثل هذه المعرفة العليا. استكشف فرويد لاوعيه الشخصي، ووجد أنه أكبر حجماً وأكثر

قوة ومعرفة من الوعي. وصف فرويد اللاوعي بأنه -ذاكرة فائقة (hypermnemonic). ذهب يونغ إلى أبعد من ذلك، حيث أنه اكتشف أدلة دامغة تدل على وجود لاوعي جماعي. يحتاج فهم سيكولوجية شتاينر الروحية إلى تمديد هذه المفاهيم في بُعدين اثنين: يمكن فهم روح شتاينر على أنه لاوعي الطبيعة وذاكرة كونية لكل ما حدث. على غرار أفلاطون وفرويد ويونغ، يصف شتاينر طريقة يمكن للمرء من خلالها أن يتقدم في الطريق إلى المعرفة العليا، وفي النهاية يتحقق لنفسه فيما اكتشفه المبتدئ وأبلغ عنه. يمكن فتح هذا اللاوعي الكوني الواسع بالتدرج من خلال التأمل (meditation)، وهي كلمة تأتي من الفعل اللاتيني بمعنى التدرب. مع الممارسة ومع مرور الوقت يمكن للجميع تطوير هذه القدرات للوصول إلى الإدراك العالي. ما الذي يمكن أن يكون أكثر تفاعلاً من الجملة الافتتاحية لكتاب شتاينر الأساسي الأول، والذي يقول فيها: "توجد في كل إنسان قدرة نائمة يستطيع من خلالها الوصول إلى معرفة العوالم العليا".





استعادة الحكمة القديمة

أنتجت أبحاث شتاينر العديد من الأفكار العميقة حول الطبيعة البشرية وتاريخ العالم. أولاً وقبل كل شيء، شرح شتاينر المعرفة القديمة للأسرار التي تقول أنّ الطبيعة البشرية ثلاثية، ولا تشمل الجسم فحسب، بل الروح والنفس أيضاً. على مر القرون، غرقت الإنسانية عميقاً في العالم المادي، وذبل وعينا بطبيعتنا العليا. غالباً ما أشار شتاينر إلى المجمع المسكوني في القسطنطينية¹ عام 869 ميلادي بأنه معلم مهم في التاريخ، حيث أصبح بعده الحديث عن الروح البشرية يُعتبر هرطقة. وغرقت الإنسانية أكثر فأكثر في المادية حتى حوالي نهاية القرن التاسع عشر، حيث شارفت المادية المنتشرة على تدمير أيّ إحساس متبقٍ لحقيقة وجود النفس البشرية أيضاً. كانت مهمة شتاينر الجبارة الأولى هي محاربة هذه المادية، والتي كان يعرفها كاذبة بسبب تجاربه الشخصية. لكنه أقر

1 ملاحظة المترجم: رفضت الكنيسة الأرثوذكسية هذا المجمع، ولا تعتبره مجمعا مسكونيا. ولكن الكنيسة الكاثوليكية تعترف به.

أيضاً بأنّ البشريّة لا يمكن أن تصبح مستقلة تماماً إلّا من خلال تحمّل خسوف طويل يُخفي فيه العالم الروحي من الرؤية، وبالتالي يجعلنا مستيقظين تماماً ومرتكزين في العالم المادي. كانت الشكوكية والمادية وسيلتين ضروريتين لعالمٍ حديثٍ عليه أن يتجاوزهما في نهاية المطاف. أمّا الآن، وبعد الحصول على فوائدها، أصبحت المادية مضرّة، ويجب على الإنسانيّة أن تبدأ في البحث عن طبيعتها العليا وعن العلاقة الصحيحة مع العالم بأكمله من خلال استقلالها المكتسب حديثاً.

التطور

لكن حتى هذه النظرة البديلة للحدّثة ليست سوى فصل واحد قصير في قصة أكبر بكثير تقودنا إلى واحدة من أعظم إنجازات شتاينر، وهو أيضاً موضوع رئيسي في كتبه ومحاضراته العديدة: إنه وصفه لتطور الوعي. في إطار هذه الرواية الخصبة، يتناول شتاينر ما يمكن وصفه بتطور الوعي الكوني على نطاق زمنيّ يغطّي جميع العصور، حتى ما قبل التاريخ، ولكنه يكرس الكثير من الاهتمام للتاريخ المسجّل. يتميّز طرافا الرواية بروعة تفوق الخيال. أكد شتاينر حقيقة التطور، ولكن ليس كما فهمه داروين. كرم شتاينر نظرية داروين التي كانت مصدر الإلهام والشرط المسبق لأبحاث شتاينر حول ما يمكن وصفه بعلم الكونيات التطوري. لم ير داروين سوى جزء صغير من صورة شتاينر الأكبر. توجد رواية شتاينر الأكثر اختصاراً عن هذه الدراما الملحمية في الفصل الرابع من كتابه الأساسي الأخير "مخطط عام للعلوم النادرة"، لكنه يبقى واحداً من أكثر النصوص تعقيداً وصعوبة من جميع كتاباته. ومع ذلك، يمكن اختصار المسار الرئيسيّ لهذه الرواية في بضع كلمات. نفس العملية التي يصفها داروين من منظور أرضي كتطور تصاعديّ تدريجيّ لأشكال حية متزايدة التعقيد، يصفها شتاينر من منظور روحي كنزول تدريجيّ لكيانات روحية تحل على إناءات جسدانية تزداد كفاءة عبر مرور الزمن. في أماكن أخرى يقدم شتاينر آراءً إضافية عن منظوره الكوني، فعلى سبيل المثال، يُكمل شتاينر الرؤية الخارجية لكتاب "العلوم النادرة" بدورة مهيبة تتمثل من خمس محاضرات قصيرة تقدم وجهة نظر إيلوهيم عن نفس العملية. وهنا، قال شتاينر أن البشرية خلقت من الأعلى إلى الأسفل، ولكنها تطورت من الأسفل إلى أعلى، وذلك عبر تناسخات متتالية لما نعتبره الآن كوكب الأرض. يتيح لنا التطور أن نصل إلى أهداف متعددة: لقد استُرشدنا على مدى عدة دهور من

البساطة نحو التعقيد، ومن اللاوعي نحو الوعي، ومن الكمون نحو النشاط، ومن الضرورة نحو الحرية. بعد أن تلقينا موهبة الحكمة، مهمتنا هي الآن أن نستوعب هذه الحكمة ونحولها إلى محبة نشطة. إن الظاهرة المتناقضة في الحرية هي أنها كلما تقدمنا نحو هذه الأهداف، تصبح نتيجة العملية أقل مؤكدة، وتوضع بشكل متزايد بين أيدينا.

ابتداءً من عام 1906 مرورا بالعقد الموالي، سافر شتاينر إلى جميع أنحاء أوروبا، حيث ألقى دورات من المحاضرات الخاصة لأعضاء الجمعية الثيوصوفية، ثم لاحقًا للجمعية الأنثروبوسوفية التي كانت قد تأسست حديثًا. كانت هذه المحاضرات تتعلق تقريبًا بجميع جوانب التاريخ الثقافي مثلما فهمه شتاينر من خلال بحثه الروحي، وكان الموضوع بالتحديد هو رؤاه عن تطور الوعي. هذا المشروع المدهش الذي يهدف لتغيير فهمنا للوعي، والذي يتضمن آلاف المحاضرات التي تملأ مئات المجلدات، هو بالتأكيد واحد من أعظم الإنجازات في التاريخ الفكري، ويناقس في نطاقه وصرامته وتألقه فقط من قبل مؤلفات أرسطو وتوماس الأكويني. لا يكفي حتى أن نقول بأن شتاينر قد أعاد كتابة التاريخ، فسيكون من الأدق القول بأنه أضاف بعدًا جديدًا تمامًا إلى التأريخ. يتجاوز تطور الوعي، كما وصفه شتاينر، أيّ تاريخ للأفكار، لأنه يقول أنّ ليس فقط محتوى الوعي، بل تركيبته ذاتها، والتي تلخص العلاقة بين الفاعل والمفعول به، قد تطورا بشكل جذري مع مرور الوقت. تتوزع أفكار شتاينر الكاملة عبر العديد من المجلدات، ولكن، لحسن الحظ، قدم لنا أوين بارفيلد ملخصًا حاسمًا وتفسيرًا وتطبيقًا أصليًا لأفكار شتاينر في كتابه "حفظ المظاهر: دراسة في الوثنية".

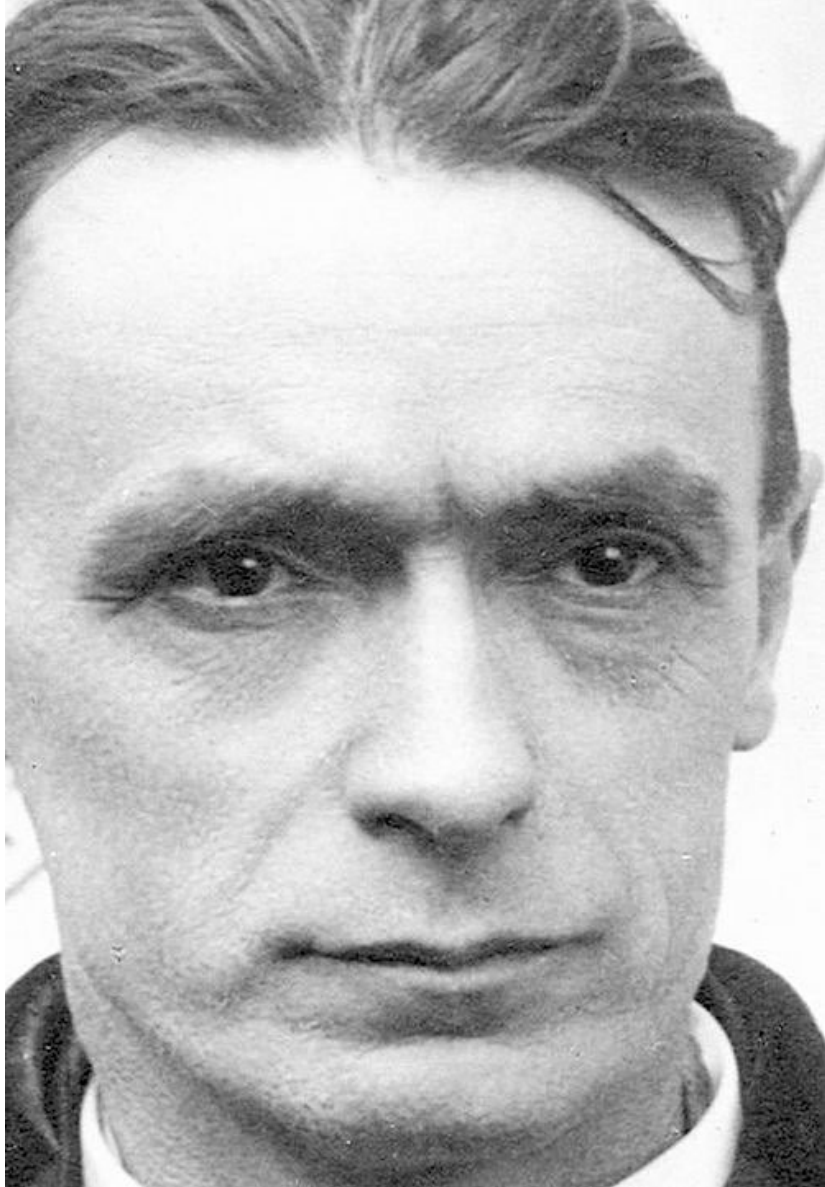
المواضيع الروحية في الفن

على مدار هذا المشروع الرائع، بدأ شتاينر في الانجذاب أكثر فأكثر نحو الفنون، وأصبح هذا التحول في التركيز أحد أهم أسباب الخلاف بين شتاينر والثيوصوفيين. رغم اعتراضات آني بيسانت، حاول شتاينر تحويل الكونغرس الثيوصوفي في عام 1907 إلى مهرجان للفنون الطليعة. بعد ذلك، على مدى أربع سنوات متتالية في ميونيخ من عام 1910 إلى 1913، سعى شتاينر لتوجيه الجمعية

الأنثروبوسوفية (التي كانت قد تأسست حديثاً) من خلال كتابة وإخراج أربعة مسرحيات تعبيرية تسمى بـدراما الأسرار، وهي تجسيد للعديد من رؤاه الرئيسية. وفي نهاية حياته، أعرب شتاينر عن أسفه لأنه لم يركز أكثر على الممارسة الفنيّة. بعد أن قُمت محاولات لبناء مركز في ميونيخ قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، قبل شتاينر دعوةً لبناء مقر للجمعية في دورناخ بالقرب من بازل في سويسرا. خلال الاضطرابات التي أعقبت الحرب، والتي شملت محاولة اغتيال فاشلة من قبل نازيين في عام 1921، نقل شتاينر المكان الرئيسي لعمله من ألمانيا إلى سويسرا. قام النازيون في وقت لاحق بحظر المجتمع وكل مشاريعه، لكن الأنثروبوسوفيين ثبتوا في مدينة دورناخ، التي لا تزال المركز الدولي للحركة الأنثروبوسوفية. على مدار العقد الأوّل من سنة 1913، أشرف شتاينر على مشروع تشييد صرح رائع معظمه منحوت من الخشب، وكان هذا الصرح يجمع بين الهندسة المعمارية وفن النحت، وبين المسرح والمعبد. نحت شتاينر مع النحاتة الإنجليزية إيديث ماريون مجموعة رائعة من التماثيل التي أصبحت محطّ الاهتمام، وقام أيضًا بتصميم جداريات على الجزء الداخلي من القبتين المتداخلتين، وساعد في رسمها. كان الهدف من هذا المبنى الذي سمّي غوتيانوم (Goetheanum) هو تجسيد مفهوم غوته المهم جداً عن التحوّل. ولكن كان هدف المبنى هو كونه (كما لا يزال المبنى الذي خلفه) مسرحاً لمسرحيات شتاينر، ولعروض كاملة غير مقطوعة لمدة خمسة أيام لمسرحية "فاوست" لغوته، ولمسرحيات كلاسيكية وحفلات موسيقية أخرى، وأيضاً لاثنتين من الأشكال الفنية الجديدة التي أنشأها شتاينر، مثل فن حركات يشبه الرقص الذي سماه "يورثمي" (eurythmy)، وفن التلاوة الذي أطلق عليه اسم الخطاب الإبداعي (Sprachgestaltung)، والذي يهدف إلى إظهار الإيماءات الداخلية للموسيقى واللغة.

إن اليورثمية هي فقرة مهمة في تاريخ الرقص قد تم إهمالها ظلمًا، فقد كانت تمثل استمرار ثورة جماليّة بدأت ليس في أوروبا فحسب بل في أمريكا. كانت الدوافع الأصلية التي أسفرت عن الرقص الجديد روحيةً بعمقٍ. ليس الرقص الحديث لويغمان وجراهام وهمفريز الوريث الحقيقي للرقص الجديد، بل إنها اليورثمية؛ فهي تجمع بين العلم الروحي للوي فولر، والتوازن بين الأبولوجي والديونيسي عند إيزادورا دانكان، والروحانية الشرقية لروث سانت دينيس.

يُعتَرَفُ بشتاينر على نطاق واسع من قبل مؤرخي الفنّ بأنه كان مهندساً كبيراً. للأسف حُرقَ أعظم عمل له، وهو "الغوتيانوم الأول" (كما يطلق عليه الآن)، من قبل مخربّ في ليلة رأس السنة لعام 1923/1922، لكن تم استبداله بـ"الغوتيانوم الثاني" المبنيّ من الخرسانة المنحوتة، والذي صمّمه شتاينر وتمّ إنهاؤه بعد موته. صرّح هانز شارون بأن الغوتيانوم الثاني هو "أهمّ مبنى في النّصف الأول من القرن العشرين". يمكن وصف أعمال شتاينر التّعبيريّة الجريئة بأنها تتّبع أسلوب الوظائفيّة الطّبيعيّة. لقد كان شتاينر مؤثراً بشكل مذهش، ذلك أنّ العديد من المهندسين المعماريين اليوم يعتبرون أنفسهم أنثروبوسوفيّين، وكان شتاينر مصدر إلهام مباشر لبعض من أشهر بنايات القرن العشرين، بما فيهم كنيسة "نوتر دام دي أو" التي صمّمها لو كوربوزيه، ومتحف غوغنهايم الذي صمّمه فرانك لويد رايت. كانت العديد من المباني الأكثر شهرة في أواخر القرن العشرين تعبيرية، وكان رودلف شتاينر هو الأعظم من بين المهندسين المعماريين المبكرين (كما أكد هانز شارون). كان شتاينر فنّاناً مهمّاً في حد ذاته، وقد أثر أيضاً على العديد من الفنّانين الرئسيين الآخرين، بل كان تأثيره على بعضهم هائلاً، من هؤلاء الفنّانين نذكر: فاسيلي كاندينسكي وأرنولد شوينبيرغ وأندريه بيلي وفيكتر أولمان وبرونو والتر وسول بيلو وجوزيف بويس.



التناسخ والكارما

لم يكرس شتاينر وقته كاملاً للمهمة الأهم في حياته المهنية سوى خلال آخر سنوات حياته. لقد كان الفيلسوف شتاينر مهتمًا بمسألتي تناسخ الأرواح والكارما، ولهذا، فقد خصص سنواته الأخيرة لنشر حقيقة تناسخ الأرواح والكارما بطريقة تتناسب مع التفكير الغربي. لم يلتزم شتاينر بهذه المهمة إلا بعد مرور فترة طويلة من المرحلة الثيوصوفية التي مرّ بها، ولم يكن ذلك محض صدفة لأن أقواله تتطابق مع معظم التعاليم الشرقية بشكل كبير، ولم يكن يرغب في أن يخلط القراء بين تصوّره الخاص عن تناسخ الأرواح والكارما والتصوّر الشرقيّ لهما. يقدّم شتاينر مقدّمة ممتازة (وضرورية) عن الموضوع في كتابه "العلم الباطني"، وتحديدًا في الفصل "النوم والموت". صحيح أنّ تشبيه النوم بال"الموت القصير" قد أصبح استعارة مُرهقة، ولكنّه يبقى تشبيهًا صحيحًا، فكّما خلدنا إلى النوم ليلاً، غادرت أرواحنا أجسادنا حتّى تتواصل مع العالم الروحانيّ، ولكننا ننسى التجربة حالما نستيقظ من النوم. وبنفس الطريقة، نحن نتواصل مع الكائنات الروحانية خلال فترة أطول نقضيها في العالم الروحانيّ، أي خلال فترة تناسخ الأرواح. وقبل أن نولد من جديد، نشرب من نهر النسيان "ليثي". يصف ووردسوورث تجربتيّ الموت والبعث بال"نوم والنسيان". إنّ انبعاثنا من الموت لا يختلف أبدًا عن استيقاظنا من النوم صباحًا: نحن نولد من جديد في كلّ مرّة.

تسعى نظرية تناسخ الأرواح إلى فهم تطوّر الوعي، والعكس بالعكس، ولكنها تخلق أيضًا توازنًا في حوادث الولادة الظاهرية، أي الطبقة الاجتماعية والهوية الجندرية، والهوية العرقية، ومدى توقّر الفرص في الحياة، إضافة إلى جودة الحياة والتّمتع بالرفاهية العالية التي تقدّمها التكنولوجيا، وغيرها. يرى شتاينر أنّنا نتناوب بين الجنسين وبين الثقافات خلال العديد من عمليات تناسخ الأرواح، وفي كلّ عملية، تمتصّ أرواحنا (أو على الأقلّ، تسنح لنا فرصة لذلك) أفضل ما تقدّمه تلك الثقافة. إنّها نظرة عالمية بامتياز: جميعنا نتحوّل تدريجيًا، عن قصد أو غير قصد، إلى مواطني هذا العالم، وإلى ذوات بشرية مكتملة. وكلّ القدرات التي نكتسبها بفضل العمل الجادّ (أو بسبب

المعاناة، أو التجارب الأخرى) في تناسخ روحيّ أوّل، تتحوّل إلى مهارات في التّناسخ الرّوحيّ الذي يليه. إنّ الدّكاء ليس وليد الصدفة.

ومعاً، يُفضي تناسخ الأرواح والكارما إلى إرساء العدالة والرّحمة في هذا العالم بشكل ملموس، عوضاً عن الوعد المبهم بالجزاء في عالم آخر. بعبارة أخرى، تتحوّل نجاحاتنا إلى مهارات جديدة، في حين تتخذ تجاربنا الفاشلة وذنوبنا أشكالاً أخرى في حياتنا الموالية، من قبيل ما تبدو في ظاهرها أحداثاً عرضيّة وخارجيّة. إنّ الكارما رحيمةٌ لأنّها تسمح لنا باختبار عواقب أفعالنا وتفتح لنا باب النّموّ والتّمثّع بالمكافآت. إنّها قانون أسمى من القوانين الدُّنياً لأنّه يدفعنا إلى الكمال. حدّرتنا شتاينر من التّعقيدات الهائلة التي تتميز بها قوانين الكارما، وأنّ الكارما حَلّاقةٌ للغاية، ولذلك، تحوّل شتاينر بشكل سريع من تقديم مجموعة من الدّروس حول بعض المبادئ الأساسيّة إلى شرح سلسلة طويلة من أمثلة عن السّير الدّاتيّة لشخصيّات تاريخيّة حقيقيّة. تعتبر عبارة "دراما" النّظير اليونانيّ للكلمة السنسكريتيّة "كارما"، ولذلك، دعانا شتاينر إلى اعتبار تجاربنا الحيّاتيّة سلسلةً من الأعمال الدّراميّة الأخلاقيّة، أو إلى اعتبار الكارما نَحّاتاً ينحت طينا حيّاً. وبما أنّ شتاينر يؤكّد على أنّ "الكارما هي الفنّان الأعظم على الإطلاق"، فذلك يعني أنّ حياتنا هي العمل الفنّيّ الأعظم على الإطلاق. كلّ ما نقوم به وكلّ ما نعاني بسببه يحمل معنى ذا أهمّيّة كبرى.

فن جديد في التعليم

مع نهاية الحرب العالمية الأولى، انهارت المؤسسات الاجتماعية والسياسية التي كانت قد فشلت فشلاً ذريعاً، تاركة فراغاً فظيماً. صرخ العالمُ بحثاً عن التجديد. خلال العقد الأخير من حياة شتاينر، أتت الأنثروبوسوفية بمجموعة واسعة من المبادرات العملية الطموحة التي كانت تهدف إلى معالجة الأزمة. بعد أن سمع صاحبُ مصنع يدعى إميل مولت، والذي كان يمتلك مصنع فالدورف أستوريا لصناعة السجائر في شتوتغارت، شتاينر يخاطب عمّاله، طلب من شتاينر أن يزود أطفال العمّال بتعليم ملائم لاحتياجاتهم وإنسانيتهم. وافق شتاينر، ولكن على بضعة شروط كانت تعتبر ثورية في ذلك الوقت: المدرسة ستكون مشتركة بين البنين والبنات، وجميع الطلاب سيخضعون لنفس المنهج الشامل، وسيتم إعطاء المعلمين الكلمة الأخيرة في جميع القرارات التربوية. مع دعم مولت السخي، افتتح شتاينر أول مدرسة فالدورف في عام 1919 بالقرب من المصنع في شتوتغارت. بعد تسع سنوات، افتتحت أول مدرسة فالدورف في أمريكا الشمالية في مدينة نيويورك. استمرت الحركة في النمو، وعلى الرغم من حظر النازيين والبلاشفة لها، أصبحت مدارس فالدورف واحدة من أكبر الحركات التعليمية غير الطائفية في العالم، حيث أصبحت لديها أكثر من 900 مدرسة و 1600 من برامج الطفولة المبكرة في ستّ قارّات.

إن أسس التربية الفالدورفية هي الأفكار العميقة التي قدمها شتاينر عن نمو الإنسان والطفل، والدور المتغير للمدرس، إضافة إلى المنهج الدراسي الشامل والوافر. لقد فهم شتاينر أن الأطفال يتعلمون بطرق مختلفة للغاية في كل مرحلة من مراحل التطور، وأن التعلم الحقيقي يجب أن يكون تحولاً تدريجياً، لا



في مستوى التفكير فحسب، بل أيضا في الشعور والإرادة. وكما قال الشاعرُ المعاصر لشتاينر ويليام بتلر بيتس: "ليس الهدف من التعليم ملء سطل، بل إشعال نار". يتعلم الأطفال الصغار أساسا من خلال التقليد واللعب، وأفضل طريقة لتعليمهم هي استخدام خيالهم.

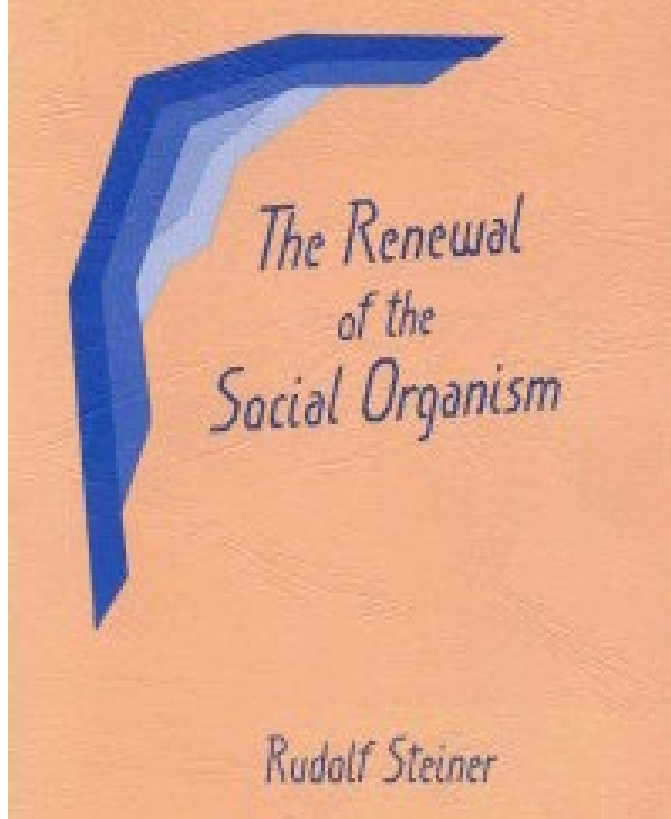
من الأفضل تأجيل المهام التفكيرية – التي يمكن حتى للأطفال الصغار أداؤها، أو بالأحرى تقليدها – حتى وقت لاحق إلى حين يبدأ المراهق بتطوير قوى حقيقية للتفكير التجريدي، والتي يمكن استعمالها مباشرة في مناهج المدارس الثانوية. إن أساس المعرفة هو اللعب، والأطفال الذين لم يسمح لهم باللعب سيصبحون بالغين غير كاملين، قد يكونوا ممتلئين بالمعلومات ولكنهم سيفتقرون إلى الإبداع. يتعلم الأطفال الصغار بشكل رئيسي من خلال إرادتهم، أي من خلال الفعل.

ثم، ومع نضوج المشاعر الداخلية في سن البلوغ وما بعده، تصبح الفنون الباب الرئيسي للمعرفة. أدرك شتاينر أيضًا أن التعلم الحقيقي ليس معتدلاً أبدًا، ولكنه ديناميكيّ بشكل دائم دائمًا. تنضج التجارب المفيدة في اللاوعي، ثم تظهر بعد سنوات كقدرات مختلفة تمامًا. على سبيل المثال، علم شتاينر أن فهم النسب الفنية المكتسبة عن طريق الرسم في مرحلة المراهقة يتحول إلى حكم سليم لدى الشخص الراشد المفكّر.

حدد شتاينر بأنه على مدرس الفصل أن يبقى مع نفس المجموعة من الأطفال عادة من الصف الأول وحتى الثامن، وبعد ذلك يقوم الخبراء بتدريس تخصصات معينة مثل الرياضيات أو اللغة الإنجليزية أو علم الأحياء. أراد شتاينر أن يصبح معلمو المدارس الابتدائية والإعدادية، قبل كل شيء، خبراء في مجموعة الأطفال الموكلة لهم. تفرض التربية الفالدورفية العديد من المطالب على المدرسين الذين يجب أن يصبحوا موسوعيين، ويتقنون مواد جديدة كل عام، ويؤمنون مع صقّهم. طلب شتاينر من المعلمين أن يفكروا بعمق كل مساء عن طلابهم وعن أنفسهم. إن نظرة شتاينر التربوية تتعلق بالتنمية الذاتية للمعلم مثلما تتعلق أيضًا بتعليم الطالب، لكن المطالب الثقيلة على المعلمين تجلب أيضًا مكافآت شخصية هائلة وعلاقات مثمرة مع الطلاب يمكن أن تدوم مدى الحياة.

أعطى شتاينر معلمي المدرسة الأولى شعارًا لإرشادهم: "قم بتلقّي الطفل بوقار، ثقّف الطفل بمحبة، ابعث في الطفل الحرّيّة". وعلى الرغم من أن التربية الفالدورفية تحترم العديد من الأديان بحكم استنباطها من تفكير تبجيليّ للعالم وللإنسان، إلّا أنّ المنهج الفالدورفي لا يهدف إلى غرس أي عقيدة دينية أو روحية محددة، مثلما أن المستشفيات لا تدرس المرضى التشريح وعلم وظائف الأعضاء. في قلب المنهاج، نجد فكرة شتاينر عن كون نمو الإنسان يلخص تطور السلالة – أي أن الإنسان الذي في مرحلة النمو يجسّد بشكل صغير العمليّة الكبيرة لتطور الوعي، والتي خضعت لها الإنسانية بكاملها. بالنسبة للأطفال الصّغار، يعتبر العالم ممثلًا بالسّحر، ويعيشون هم في تعاطف عميق وحالم مع الحيوانات والنباتات والأحجار. يغدّي هذا المنهج الوعي بأساطير وروايات تتبع الأنماط الأوّلية من العديد من الثقافات. في الصّفّ الثّالث، يصبح الأطفال بمعنى واقعي موحدين

مؤمنين بالله. بحلول الصف السادس، يصبحون فقهاء رومانين. مع نموهم يزيد استقلالهم حتى يصلوا إلى نهضتهم الداخلية. حدد شتاينر هذه اللحظة بأنها اللحظة المركزية للمنهج بأكمله. المراهقة هي عصر الثورات الكبرى. يسعى التعليم الفالدورفي إلى الوصول للطلاب أينما يعيشون، ويعرف أن هذه التجارب المكتسبة سوف تظهر في وقت لاحق كمجموعة مختلفة من القدرات المناسبة والمعاصرة. بحلول الوقت الذي يصلون فيه المدرسة الثانوية، يكون الطلاب مستعدين للأنشطة الفكرية الأكثر صرامة التي نستطيع أن نقدمها لهم، وهم قادرون على التفاعل مع هذه الأنشطة من خلال مواردهم الداخليّة الغنيّة. وبهذه الطريقة، يسعى منهج فالدورف إلى أن يقدم "تعليمًا كلاسيكيًا معاصرًا لا يقتصر على الرأس فحسب، بل يتعامل أيضًا مع القلب واليد. ليس فقط إعدادا للكليّة وإنما إنه إعداد للحياة"، كما تصفه إحدى المدارس.



التجديد الاجتماعي

يُعد التعليم الفالدورفي حاليًا الجانب الأكثر شهرة من أعمال شتاينر، ولكن قليلون هم من يدركون أنه لم يبلغ إمكانياته القصوى، وله أن يبلغ تلك الإمكانيات اليوم ويتحوّل إلى نظام اجتماعي أكبر بكثير. وصف شتاينر ذلك بالألمانية بشكل غير مثالي كـ (soziale Dreigliederung)، والترجمة المعتادة له، "النظام الاجتماعي الثلاثي"، بالكاد تكون أكثر توفيقًا. من الصعب وصف الفكر الاجتماعي والسياسي لشتاينر بإيجاز مثلما يصعب ذلك مع الكثير من أعماله الأخرى لأنه يتقاطع مع العديد من الفئات التصنيفية التقليدية. إن نقد شتاينر لرأسمالية عدم التدخل يشابه نقد ماركس في العديد من الأمور المهمة، مثل إصراره على أن العمل البشري ليس سلعة يمكن بيعها، وأن الحياة الصناعية منفرة لأنها تنتهك حرمة الطبيعة الإنسانية نفسها. لكن شتاينر يتشابه أكثر مع الليبراليين الكلاسيكيين في إصراره على فصل العالم السياسي الذي سماه "مجال الحقوق" من الاقتصاد والثقافة، بما في ذلك الدين والتعليم.

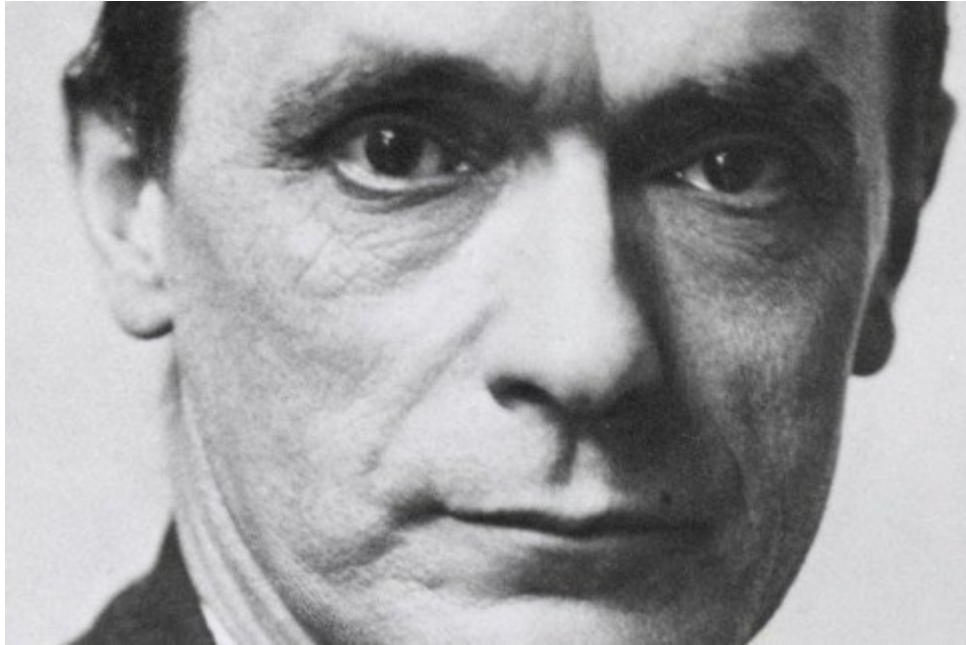
بعد الحرب العالمية الأولى، برز شتاينر كمُنظر سياسي وناشط كبير. دخل إلى الفراغ الناجم عن الهزيمة وتخلي القيصر عن عرشه معلنا دعمه لما نسميه الآن الطريق الثالث بين الرأسمالية والشيوعية - وهي فكرة ستعود لاحقًا في ربيع براغ عام 1968، والتي تأثرت كثيرًا بنظريات شتاينر. نشر شتاينر بيانًا تم توقيعه من قبل العديد من الشخصيات المهمة إلى جانب عشرات المقالات، وكتابًا يقدم أفكاره الأساسية بشكل يفهمه الشخص العادي. ألقى أيضًا محاضرات إلى لجان العمال في جميع أنحاء ألمانيا بعد سماع إحدى هذه الخطب في مصنعه تحادث إميل مولت مع شتاينر، وقام بتدريب وبعث فرق من العمال لإعلان أفكاره، بل أسس حملة سياسية على نطاق واسع آملًا بالفوز مباشرة في الاستفتاء على نظام الحكومة الجديد في سيليسيا، ولكنه فشل في النهاية.

مثل الكثير من الأفكار السياسية المتطرفة، تتركز أفكار شتاينر في البداية على نمط المفاهيم المستوحاة من الثورة الفرنسية: الحرية والمساواة والأخوة (liberté, égalité, fraternité)، التي لم تُفهم ولم تُطبق بشكل صحيح. لكن شتاينر يقبل النظرية الاجتماعية التقليدية رأسًا على عقب

من خلال ادعائه بأن الإيثار، أياأخوة، (fraternité) يجب أن يكون المبدأ التوجيهي في المجال الاقتصادي. وقال إن تقسيم العمل المتزايد باستمرار يؤكد حقيقة هذا المبدأ، لأنه يعني أننا نعمل أكثر للآخرين وأقل لأنفسنا. يجب أن يكون الشكل العملي الرئيسي للإيثار هو اقتصاديات تعاونية، حيث يتشاور المنتجون والمستهلكون ويتعاونون لإنتاج ما هو حقًا مطلوب بأعلى مستوى من الكفاءة. تعتبر المزارع المجتمعية مثالًا جيدًا وفعليًا لهذه الفكرة، حيث يشتري المستهلكون أسهما في المزرعة ويكون لهم صوت في تحديد ما سيُزرع، ويزورون المزرعة، ويحمون المزارعين من تقلبات الطقس والسوق من خلال ضمان دخلهم. إن الزراعة المدعومة من قبل المجتمع أو (community-supported agriculture) هي الآن حركة كبيرة ومتنوعة في أمريكا، لكن المفهوم كان في الأصل لشتاينر، وأحضر هنا من قبل أنثروبوسوفيين.

يجب أن يُحكم المجال الوسط للحقوق والقانون بمبدأ المساواة (égalité). لقد أصرّ شتاينر على أن الديمقراطية هي وحدها النظام السياسي الصحيح، في وقت كان فيه الكثيرون غير متأكدين. هذا هو المجال الصحيح للسياسة، والمجال الوحيد الذي يجب أن تكون فيه السياسة حتمية. وفوق ذلك، فإن شتاينر لا يحدد هنا فقط العمالة وأجور العمل، والتي يعتبرها من حقوق الإنسان الأساسية، بل أيضاً المال والبنوك أيضاً، إذ تتمثل مهمتها الحقيقية في تخصيص رأس المال يضمن الخير للجميع. إن أفكار شتاينر عن المال رائعة، فعلى سبيل المثال، لا يعتبر شتاينر المال سلعة تبادل عالمية، وإنما شهادة استحقاق، وهو يعتقد أن المال يبدي صفات مختلفة جذريا خلال مسيرته في المجالات الثلاثة. بالنسبة إلى شتاينر، يولد رأس المال كفكرة ومبادرة للمشاريع ضمن المجال الثقافي الروحي، ثم يتجلى على صورة أموال القروض ضمن مجال الحقوق، وينشر نفسه كأموال الشراء في المجال الاقتصادي، وفي النهاية ينتج عائدات وأرباح لتسديد القروض ودعم المؤسسات التعليمية والثقافية مع أموال الهدايا، والتي تسمح للدورة بأن تبدأ من جديد. إحدى النتائج العملية لفكر شتاينر في هذا المجال هو إنشاء البنوك الأنثروبوسوفية، التي تشبه المؤسسات غير الربحية في دعمها للقضايا الجديدة بالاهتمام. تنشر بعض هذه البنوك رسائل إخبارية بانتظام، وتدعو المودعين للاختيار من بين مقدمي طلبات للقروض بعد وصفهم لمشاريعهم.

حسب شتاينر، فيجب ألا تكون الحرية (*liberté*) الميزة الرئيسية للمجال الاقتصادي، بل أن تكون ميزة المجال الروحي الثقافي في النظام الاجتماعي الصحي، ليست الشركات الاقتصادية هي التي يجب أن تتنافس بحرية، بل الأفكار التي يجب عليها بذلك. يجب حماية المدارس والكنائس والمتاحف والجامعات وغيرها من المؤسسات التي تنتمي لهذا المجال من التأثيرات السياسية والاقتصادية. ينبغي السماح للثقافات المختلفة بالازدهار بشكل مستقل داخل كل كيان سياسي، وينبغي تمويل المؤسسات الثقافية عن طريق هدايا مجانية لكي تكون ذاتية الحكم. في هذا المجال، يجب أن تكون زراعة القدرة الإبداعية الكاملة في كل شخص غاية في حد ذاتها. ليس هدف المدارس التلقين أو حتى للتدريب، بل التعليم. حركة المدارس الفالدورفية هي مثال عملي لجمع لهذه المبادئ.



بذور حضارة جديدة

أسفرت الأنثروبوسوفية عن بروز المزيد من المبادرات الأخرى خلال حياة شتاينر وبعدها؛ فقد عمل مع أطباء لإنشاء أنواع جديدة من الطب التكميلي، أو الموسّع أنثروبوسوفياً: لا تزال الحركة صغيرةً في أمريكا الشمالية، ولكنها ازدهرت في أوروبا، حيث تم إنشاء العديد من الصيدليات والعيادات وحتى بعض المستشفيات الأنثروبوسوفية. تعتبر (Weleda) و (Hauschka) شركات دوائية دولية محترمة، وتم افتتاح صيدلية (Uriel) و (TrueBotanica) حديثاً في الولايات المتحدة. وتعتبر (Hauschka) الآن من قبل الكثيرين بأنها الشركة الرائدة في مستحضرات التجميل. تعمل عشرات المجتمعات المحلية والخارجية، ولا سيما حركة كامب هيل، من خلال الأفكار الأنثروبوسوفية لتلبية احتياجات الأطفال والبالغين ذوي الاحتياجات الخاصة.

كان شتاينر بالفعل متقدماً جداً على زمنه، ولهذا السبب تكلم بشكل مباشر عن الكثير من القضايا التي ما زلنا نتصارع معها اليوم. لدى نظرياته الاجتماعية القدرة على توضيح المناقشات الحالية حول العولمة. ألقى شتاينر الكثير من لوم الحرب العالمية الأولى على فكرة الاقتصاد الوطني الخاطئة، مؤكداً أنّ الاقتصاد بطبيعته ليس سياسياً، بل عالمياً. لقد كان ناشطاً لحقوق المرأة، حيث ناظر في عام 1895 من أجل منح النساء حق الاقتراع، وأصر على أنه إذا كانت هناك قضايا تخص النساء، فيجب أن يكون القرار النهائي للنساء في هذه الأمور. كان شتاينر أيضاً عالماً بيئياً مبكراً وواسع المعرفة. منذ أكثر من قرن، حذر بأن علاقة الإنسانية مع كوكب الأرض تحتاج إلى العلاج. وبناء على ذلك، أصبح شتاينر رائداً عظيماً في الزراعة العضوية، وابتكر أساليب الزراعة البيوديناميكية التي تُستخدم في جميع أنحاء العالم اليوم. توجد المزارع البيوديناميكية في ثلاثين ولاية أمريكية، وقد تحولت عشرات من الكروم إلى إنتاج بيوديناميكي. أصبحت الزراعة البيوديناميكية معروفة على نفس المستوى كالتعليم الفالدورفي، ويمكن للأنثروبوسوفية أن توفر أسساً نظريةً وعمليةً تخص ليس فقط الزراعة العضوية بل الحركة البيئية بشكل عام. هناك أيضاً محاولات كثيرة لاستخدام أفكار شتاينر في عالم الأعمال؛ فقد تم تأسيس شركات أوروبية كبرى مثل (Mahle) و (Altnatura) و (Software AG) من قبل أنثروبوسوفيين، وتتم إدارتها بدرجات

مختلفة من المبادئ الأنثروبوسوفية. ويمكن أن يشير الأنثروبوسوفيون إلى عقود من الخبرة الناجحة في مجال التمويل الاجتماعي الناشئ.

في عالم أصبحت فيه الكثير من الإيديولوجيات من قبيل الماركسية والقومية والمادية والأصولية الدينية اليد الخفية للسوق، تكاد تزيد عن اللزوم أو تكون سببًا للدمار، يتعطش العديد من الناس لنوع جديد من التفكير والأفكار الناشئة عن فهم جديد، والحاملة لقدرة تحويلية حقيقية. إنهم يتوقون إلى أفكار يمكن أن تصبح مثلًا حقيقية وحيوية. قدّم لنا شتاينر هذه الأفكار بوفرة، ملهما مجموعة كبيرة من المبادرات في جميع أنحاء العالم.

تبقى الأنثروبوسوفية حديثة الأثر على الرغم من بلوغها مائة عام. لا يزال شتاينر يُعتبر رائدًا بفضل ما قام به من أجل زراعة زرع بذور حضارة إنسانية جديدة. دعونا ننميها.